

A critical study of the foundations of humanistic thought and its social effects

Ibrahim al-Shakhs

Ph.D. student in Jurisprudence (Fiqh) and Islamic knowledge - Islamic Philosophy Branch, Aalul-Bayt University, Saudi Arabia. E-mail: Ibrahim@gmail.com

Summary

Humanism is one of the contemporary ideas that affect Western thinking with its various orientations. Humanism has appeared as reactions against the dominance of Christian Church over social and scientific life. Humanism so soon took on an anti-religious situation. However, modern humanism has general principles that may not openly announce hostility to religion, but it does have hostility towards religion by rejecting the religious teachings, being satisfied only with human sciences and establishing ethical foundations that do not depend on religion. Humanism has founded a worldview, in which man would be the axis of everything, and that God would have nothing to do with man's life, saying that religious beliefs have no influence on life; and so, religion is of no importance to man. Therefore, religious and irreligious people are the same according to the humanistic thought. Although the religious thought believes that God is the axis of everything and that man is not but a slave (to God) who should manage his life according to the divine orders; it gives too much regard to man's capabilities and role in life, but to limit man's ability and life to the material side. Religious thought says that the loss of morality leads to a savage life full of fighting and aggression over transient pleasures. The study follows the descriptive, analytical approach in showing humanism, and the analytical-critical approach to criticize the principles of humanism and their consequences.

Keywords: humanism, human dignity, intellectual freedom, religion and man.

Al-Daleel, 2023, Vol. 5, No. 4, PP .145-165

Received: 12/01/2023; Accepted: 15/02/2023

Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

©the author(s)



دراسة نقدية لمباني الفكر الأنسني وآثاره الاجتماعية

إبراهيم الشخص

طالب دكتوراه في الفقه والمعارف الإسلامية - فرع الفلسفة الإسلامية، جامعة آل البيت ع، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: Ibrahim@gmail.com

الخلاصة

تعدّ فكرة الأنسنة من الأفكار المعاصرة المؤثرة في مفاصل الفكر الغربي بتوجّهاته المختلفة، وقد نشأت في أجواء ردود فعل على تسلّط الكنيسة المسيحية على الحياة الاجتماعية والعلمية، وسرعان ما أخذت طابعاً معادياً للدين، وقد تضمّن الفكر الأنسني الحديث مبادئ عامّة قد لا تصرّح بمعاداة الدين، إلّا أنّها ضمّنت المعاداة للدين انطلاقاً من رفض التعاليم الدينية والاكتفاء بالعلم الإنساني، ثمّ تأسيس مباني أخلاقية لا تعتمد على الدين، ورؤية كونية يكون المحور فيها هو الإنسان وأنّ الخالق ليس له أيّ مدخلة في سير الحياة، وصولاً إلى كون الاعتقاد الديني لا يؤثر في الحياة، فلا أهميّة له، فالمتدين والملاحد سواء وفق الفكر الأنسني. ومع أنّ الفكر الديني الذي يتبنّى محورية الخالق وأنّ الإنسان عبد ينبغي أن ينظّم حياته وفق المنهج الإلهي؛ يعطي كذلك أهميّة بالغة لقدرات الإنسان ودوره في الحياة، ويرفض حصر القدرة الإنسانية ومجالات حياته في الجانب المادي، بل يؤكّد أنّ فقد المعنوية يعني حياة حيوانية ملؤها التقاتل على اللذة المحدودة. ويعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي في بيان الفكر الأنسني، والمنهج التحليلي النقدي لنقد مبادئ الفكر الأنسني وما يترتب عليه.

الكلمات المفتاحية: الأنسنة، كرامة الإنسان، الحرّية الفكرية، الدين والإنسان.

مجلة الدليل، 2023، السنة الخامسة، العدد الرابع، ص. 145 - 165

استلام: 2023/01/12، القبول: 2023/02/15

الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث

© المؤلف



المقدمة

يسعى الإنسان إلى القدرة، ويحب أن يكون عالمًا وأن يتسلط على ما حوله، ولا يريد أن يرى شيئًا خارج نطاق قدرته ومنافعه، وقد أعطي من القدرات الذاتية ما يعينه على ذلك، فهو اليوم يتعامل مع كل شيء وفق حاجاته ورغباته.

ومع ذلك فهو لا يستغني عن الحياة الروحية والجوانب المعنوية، فهو يحب الدعاء ويرغب دائمًا في السمو والأخلاق والتعالي الروحي، وذلك بالنظر إلى طبيعة الإنسان وحاجاته وكماله.

ولما كان عنوان (الأنسنة) - بما يحمله من ادعاء الاهتمام بالإنسان والرجوع إلى قدراته، وبما يقترن به من شعارات مؤثرة كالكرامة والحرية والسعادة - عنوان يلفت الأنظار ويجذب النفوس نحوه، بل قد تنقل من خلاله الثقافات ويتحكّم في المواقف.

بينما تضمّن تلك الشعارات والعناوين في جوانبها العملية تدمير القيم والمبادئ الإنسانية الفطرية، ويراد لها أن تحرف الإنسان عن إنسانيته الواقعية، المتمثلة في حياته المعنوية والمادية معًا، ولا تقتصر حياة الإنسان على الأكل والشرب واللذائذ المادية، وهذا ما يؤكده الفكر الديني. نناقش في هذه المقالة أسس الفكر الأنسني ومبادئه وآثاره الاجتماعية، ومع أنّها قد تأخذ طابعًا دينيًا، إلا أنّ الدين الذي يطرحه الفكر الأنسني يختلف عن الدين الذي يتبنّاه الإلهيون، والإنسان الذي يربّيه الفكر الأنسني يختلف عن الإنسان الذي يربّيه الفكر الديني.

أولاً: مفهوم الأنسنة

1- معنى الأنسنة (الإنسانية)

الأنسنة أو (النزعة الإنسانية) مصطلح حديث معرب عن (Humanism)، وهو حصيلة تحول ثقافي فكري غربي، إذ فرّق علماء الغرب في أواخر العصر القديم وبدايات العصر الحديث بين المعارف الدينية، والمعارف المرتبطة بالمسائل الدنيوية. [موسوي، الإنسان بين المعتقد الديني والأنسنة، ص 22] وقد نشأ ضمن أيديولوجيا راجت في إيطاليا نهايات القرن الرابع عشر من كلمة (Humanitas) اللاتينية، وهي في معناها العامّ نظام فكري احتلّت فيه القيم والنفعية وعنوان الكرامة الإنسانية مكانةً بالغةً وتجعل الإنسان مقياساً لكل قيمة. [الحنفي، الموسوعة الفلسفية، ص 71]

ويمثل والتر ليمان (Walter Lippmann) (1889-1974) أحد صورها المتطرّفة تجاه الدين حيث يقدم أخلاقيته على أنّها أخلاقية (الإنسانية) المتعارضة مع الربوبية، فهو يرى أنّ الناس ما عادوا يعتقدون بملك سماوي، فهم محتاجون إلى أن يجدوا في التجربة البشرية معايير الخير كافّة، ويجب أن يعيشوا بناءً على الاعتقاد بأنّ واجب الإنسان هو أن يجعل إرادته مطابقةً لأفضل معرفة لشروط السعادة البشرية لا لإرادة الله. [انظر: لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج 2، ص 568]

ومع أنّ لهذا المصطلح معاني متفاوتة متناسبة مع مجال استعماله ثقافياً أو فلسفياً أو فكرياً، وحتى قانونياً، إلّا أن لالاند (Lalande Andre) حاول في موسوعته الفلسفية أن يجمع بين معانيه بتعريفه الأنسنة بأنّها: «مركزية إنسانية متروية، تنطلق من معرفة الإنسان، وموضوعها تقويم الإنسان وتقييمه، واستبعاد كلّ ما من شأنه تغريبه عن ذاته، سواء بإخضاعه لحقائق ولقوى خارقة للطبيعة البشرية، أم بتشويبه من خلال استعماله استعمالاً دونياً، دون الطبيعة البشرية» [المصدر السابق، ص 569].

فهذا التعريف يمكن استعماله في مجالات مختلفة (علمية، معرفية، اجتماعية، أخلاقية) وبصيغ متعدّدة، بل أيضاً حسب تحديد (المركزية البشرية) المقصودة وكونها معتمدةً فقط كمنهج أو تصل إلى مستوى نسق أو نظام فكري، وحسب ما يكون فيها مقدار استبعاد (ما فوق الطبيعة)، هذا ما يؤكّده لالاند نفسه. [المصدر السابق]

فنحن أمام مرونة خاصّة في المصطلح والفكر المقترن به؛ لذلك فإنّ استعمال مصطلح (الأنسنة) أو (الإنسانية) أنسب من التعبير بـ (الإنسانية) مثلاً الذي قد نجده عند بعض الكتاب؛ لأنّ (الإنسانية) تشير إلى الطبيعة الإنسانية والتي يفهم منها - وفق الفكر الإسلامي، بل الديني بشكل

عام - ما خلق عليه الإنسان أو فطر عليه، وهي فكرة ترجع إلى الاعتقاد بوجود الخالق، وتقترب عادةً بالجوانب الأخلاقية والمقترنة بالمعنوية، وبالدين من ناحية فكرية، بينما يعبر الفكر الأنسني عن اتجاه معاكس لذلك، فهو فكر يريد أن يخرج الإنسان من دائرة المعنى والارتباط بالغيب إلى إنسانيته المادية الجسدية في الأغلب، فهي أنسنة الفكر وتبعاً له السلوك؛ بمعنى تحويله من فكر ينظر إلى باطن الإنسان وحقيقته المعنوية ليرجعه إلى ذاته وما تحتاجه من كمال معنوي، إلى فكر ينظر إلى ظاهر الإنسان وجسمه المادي وكأنه ينظر إلى نفسه من الخارج فيفترض أن هذا (ما يراه) هو الإنسان، ثم يحول فكره وينسبه إلى هذا الإنسان المادي، فهو يؤنس فكره بهذه الطريقة، مدّعياً أنه يرجع إلى حقيقة الإنسان، مع أنه إنما يكون إنسانياً بتلك الطريقة التي تجعله ينظر إلى باطنه.

وعرف بعض المعاصرين ممن اهتم بالفكر الأنسني الأنسنة بأنها: تمثّل أخلاقية النبيل البشري، وأنها تعترف بعبقريّة الجنس البشري، وتمجّد عظمة إبداعه وتواجه قوّة الطبيعة الميّتة بالقوّة الحيّة للإنسان، وأنها ذلك الجهد الذي ينمي في داخل الإنسان كلّ الطاقات البشرية، فلا يترك شيئاً يضيع ممّا يعظّم الإنسان ويمجّده. [صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، ص 82]

بل يؤكد رالف بارتون پري (Ralph Barton Perry) (1876 - 1957) أن (المذهب الإنساني) تعبير عن تلك النوازع والمآقي وضروب النشاط التي يتوصّل الإنسان الطبيعي بفضلها إلى ما فوق الطبيعة، فإنّ نموذج المذهب الإنساني ليس الإنسان الطبيعي، ولا الإنسان فوق الطبيعي كبديل له، بل إنّه بالضبط الثنائي المؤلّف من الإنسان الطبيعي ومن إمكاناته على التسامي.

إنّ الإنسان الطبيعي مسوق دوماً نحو تنمية إمكاناته، وإنّ المنبت الذي يخرج منه هو عالمه الذي يحدّد الشروط التي لا مهرب منها لحياته العضوية النامية، والإنسان يتفحص عالمه هذا ويتملّكه عن طريق المعرفة ويستخدمه لتحقيق المثل العليا، ويزيّنه ويتمتّع به بواسطة إحساسه الجمالي ويرتكز عليه ويتطلّع بعيداً متخطّياً حدوده، غير أنّه لا يرفض عالمه الطبيعي أبداً، وهذا ما أقترحه ليكون تقريراً أوّل لمعاني المذهب الإنساني المتعدّدة. [پري، إنسانية الإنسان، ص 10]

2- نظرة تاريخية

أ- الأنسنة في الفكر اليوناني

يمكن ملاحظة الاهتمام بالإنسان فكرياً في العصر اليوناني، حيث البحوث العلمية التي تدرس حالات بالإنسان المختلفة وطريقة تفكيره، مروراً بدراسة المعايير الأخلاقية والدينية

المؤثرة في سلوكه، وصولاً إلى تكون الفكر الفلسفي الذي يدرس حقيقة الإنسان والمبادئ الإنسانية وغيرها [مشكى، انسان محوري، ص 80]، كما ظهرت السفسطة تحت نفس الغطاء عند بروتاغوراس (Protagoras) (481 - 411 ق.م) أنسنة حيث يعطي الإنسان مساحةً واسعةً لتأثير الإنسان في المعرفة ويرى أن الإنسان هو مقياس كل شيء، مقياس وجود ما هو موجود، وكيف هو موجود؟ وعدم ما ليس بموجود، وكيف كان كذلك؟

وهو ما واجهه سقراط (Socrates) (470 - 399 ق.م) [انظر: افلاطون، دوره آثار افلاطون، ج 3، ص 1377] ومن بعده أفلاطون وأرسطو، حيث واجهوا موجة الشك والنسبية المعرفية بالتأسيس للمعرفة المعتمدة على العقل، والفلسفة المتيافيزيقية، التي تعطي للإنسان القدرة على المعرفة الصحيحة من خلال عقله وفكره، بل تعطيه مرتبة المعرفة الحقّة المطابقة للواقع، فهي تعزز مكانة الإنسان وأهميته.

ب- الأنسنة في عهد الكنيسة (القرون الوسطى)

تمثل ما يسمى بالقرون الوسطى توجه البحوث العلمية نحو المعرفة الإلهية المسيحية المقترنة مع رفض الفلسفة اليونانية العقلية، بينما كان للفلسفة اليونانية حضورها في الفكر الإسلامي وبطابع ديني، ولم يكن يجد الفلاسفة المسلمون تعارضاً وتنافياً بين نتائج التفكير الفلسفي العقلي والفكر العقدي الديني. [انظر: لو، الإنسانية، ص 21]

ج- الأنسنة في عصر النهضة والعصر الحديث

ومع بداية عصر النهضة، ظهر اتجاه واضح بين مختلف طبقات المجتمع يتبنى الفكر اليوناني القديم، وقد أطلق مصطلح (humanists) على رواد هذه الحركة من شعراء وكتاب وخطباء وباحثين في مختلف المجالات، ويعتقد إنسانويو عصر النهضة أن الإنسان الجديد يعتمد على نفسه قبل كل شيء، ومن ثم على العالم من حوله، وقد تحدّث وكتب أبرز مفكرهم عن مفهوم الإنسان القدير، وقد عمل الأنسنيون على مواجهة التعاليم المسيحية، والترويج للرجوع إلى الفكر اليوناني.

[انظر: هاشمي، مقاييسه تطبيقي انسان گرایي در اندیشه اسلامی و غربی، ص 34، مشكى، انسان محوري، ص 81]

كان الأنسنيون عادةً ناقدين لبعض التعاليم الدينية أو منهج المعرفة الدينية، ثم شكّل ما يعرف بعصر التنوير خلال القرن الثامن عشر الميلادي فترة تزايد النقد للفكر الديني حتى من قبل تلك الاتجاهات الدينية التنويرية داخل الكنيسة، فرغم توجيه الانتقادات إلى الدين إلا أن ذلك كان عبارةً عن معتقدات دينية بديلة، فحينها كان وجود المعتقدات الإلحادية ما زال نادراً، لكن هذه الانتقادات نفسها ساهمت في تقوية الفكر الإلحادي فيما بعد.

ومن أهم مفكرى عصر التنوير المسيحي دفيد هيوم (David Hume) حيث أخضع الكثير من المعتقدات المفترضة منطقيتها للنقد، ليتجه نحو الشك والإلحاد. ويعد إيمانويل كانط (Immanuel Kant) (1724 - 1804) من أبرز مفكرى هذه المرحلة، وينحدر من أسرة متديّنة، وكان يرى أنّ على الإنسان في عصر التنوير أن يخرج من إطار طفولته ومجرّد القبول غير الناقد لما يقال له إلى الجراءة على التفكير والشك، وأن يستخدم عقله إلى أبعد حدّ ممكن، ثم اتّجه الفكر الأنسني خلال القرن التاسع عشر بالتدرّج إلى المعارضة الواضحة للإيمان بالخالق.

[انظر: لو، ستيفن، الإنسانوية، ص 24 - 26؛ هاشمى، مقايسه تطبيقى انسان گرایى در اندیشه اسلامى و غربى، ص 36]

ثانيًا: نظرة نقدية لمبادئ الفكر الأنسني

1- مبادئ الفكر الأنسني

مع ما لفكرة الأنسنة من قابلية للانطباق على كثير من المبادئ والقيم، إلّا أنّ هناك اتّجاهات حاولت التأسيس لفكر أنسني، ثمّ تصدّرت تلك الاتجاهات واجهة هذا العنوان حتّى أصبح ينسب إليها، وبحسب ستيفن لو (Stephen Law) [لو، الإنسانوية (مقدّمة قصيرة جدًّا)، ص 9 و 10] فإنّ أهمّ المبادئ التي يتبنّاها أصحاب الفكر الأنسني والمنظّرون له كالتالي:

أ- العلم والعقل أداتان مهمّتان للغاية يمكننا ويجب استخدامهما في كلّ مناحي الحياة، ولا ينبغي النظر لأيّ معتقدات على أنّها ممنوع الخوض فيها وغير خاضعة للاستقصاء العقلاني.
ب- الإنسانويون إمّا ملحدون أو لا أدريون، إنهم يشكون في وجود إله أو آلهة، وكذلك في وجود الملائكة والشياطين وغيرها.

ج- هذه الحياة هي الحياة الوحيدة لنا؛ فلا توجد حياة أخرى تعود فيها أرواحنا إلى أجسادنا بعد موتنا، كما لا توجد جنّة ولا نار.

د- ينبغي أن نستمدّ أخلاقنا عن طريق دراسة الطبيعة الفعلية للبشر وما يساعدهم على الازدهار في هذه الحياة لا الحياة الآخرة، ويقدم الإنسانويون حججًا وتبريراتٍ أخلاقيةً لا تعود للمعتقدات أو السلطة الدينية.

هـ- الاستقلال الأخلاقي الفردي، فمن مسؤوليتنا كأفراد أن نصدّر أحكامنا الأخلاقية الخاصة، لا أن نحاول تسليم تلك المسؤولية إلى سلطة خارجية ما مثل زعيم سياسي أو عقيدة دينية لتصدر لنا الأحكام بالنيابة عنّا.

و- يمكن أن يكون لحياتنا معنى دون أن يهبنا الإله إيّاه.

ز- العلمانية، فيجب أن يكون المجتمع ديمقراطياً تتخذ فيه الدولة موقفاً حيادياً فيما يتعلق بالدين، وتحمي حرية الأفراد في اتباع الأفكار الدينية واعتناقها أو رفضها ونقدها كغيرها.

2- أصول الفكر الأنسني

أهم أصل للأنسنة هو محورية الإنسان بدلاً من محورية الإله، وينتج عن هذا الأصل الأصول الأخرى، فمن الجانب المعرفي على الإنسان أن يعتمد على العقل الإنساني وليس الدين، ومن الجانب العملي عليه أن يخدم الإنسان وليس الإله، وعليه أن يخطو لأجل رضا الإنسان وليس رضا الإله. ويتجنب ستيفن لو أن ينسب لمبادئ الأنسنة رفض الاعتقاد بوجود خالق، ويؤكد أنه لا ضرورة من التقيّد بتعريف للأنسنة يستبعد على نحو تلقائي الذين لا يؤمنون بالمذهب الطبيعي أو لا يؤمنون بوجود إله، فهو يرى أن من يرفض المذهب الطبيعي المادي، بل ومن يؤمن بوجود إله يمكن أن يكون إنسانياً أيضاً، وفق المبادئ التي ذكرها [المصدر السابق، ص 11 و 12]، مع أن المبدأ الأول والثاني على الخصوص وباقي المبادئ بشكل عام لا تتناسب مع الإيمان بوجود إله خالق.

نعم، قد نجد صورة أقل بعداً عن الدين والاعتقاد بوجود الخالق في مثل الأنسنة التي يطرحها رالف بارتون الذي يرى أن نموذج المذهب الإنساني ليس الإنسان الطبيعي، ولا الإنسان فوق الطبيعي كبديل له، بل هو الثنائي المؤلف من الإنسان الطبيعي ومن قدرته على التسامي، والإنسان يتفحص عالمه هذا عن طريق المعرفة ويستخدمه لتحقيق المثل العليا. [انظر: بارتون، إنسانية الإنسان، ص 10]

ثم إن رالف بارتون نقل كلاماً لجاليليو (Galileo Galilei) الذي يعدّه من قادة النزعة الإنسانية، يتّضح من خلاله منشأ الاختلاف مع الاتجاه الديني السائد حينها، إذ يقول جاليليو: «في أمر استحداث الأمور الجديدة، من ذا الذي يستطيع أن يشكّ في أنّ أسوأ حالات الفوضى سوف تحدث عندما تضطرّ العقول التي خلقها الله حرّة أن تخضع بعبودية إلى إرادة خارجية؟ عندما يطلب منا أن ننكر حواسنا وأن نخضعها لنزوات الآخرين؟ عندما ينصبّ أناس مجردون من أيّة كفاية حكماً على الخبراء المتفوقين، ويمنحون السلطة ليعاملوهم كما يشاؤون! هذه المستحدثات الكفيلة بأن تسبّب خراب الشعوب وتقويض الدولة» [المصدر السابق، ص 15].

فهو لا ينكر الانتماء إلى الله ﷻ، لكنّه يرفض الخضوع للتعبّد كما تقدّمه الكنيسة، التعبّد بمواقف مرتبطة بالكون والطبيعة في مقابل نتائج العلم التجريبي الحسي، وهو أحد أهم جوانب المواجهة بين الاتجاهات التجريبية والعلمانية بصيغها الأنسنية، وبين الفكر الديني بصيغته الكنسية.

ثالثاً: اتجاهات الأنسنة

لما يحتويه الفكر الأنسي وما يحمله من شعارات لها طابع جميل مثل: "كرامة الإنسان" و"حقوق الإنسان" و"حرية الإنسان" وغيرها، فإنّ تبني بعض أفكاره أو استعمال شعاراته قد يؤثر بالتدريج لخلق اتجاهات أنسية متنوعة، فالأنسنة ليست ديناً ولا نظاماً اعتقادياً له حدّ معين للانتماء إليه، إنّما هي فكرة عامّة يمكن أن يدعى الانتماء لها بسهولة.

يقول رالف بارتون: «ولكي تكون عبارة "المذهب الإنساني" ذات دلالة معنوية فلا بدّ لها من أن تحتفظ بهذه المرونة في التلوّن كمدلول لاتّجاه أو لتأكيد يعكس غموض الطبيعة الإنسانية، فإنّها لخاصية عميقة في الإنسان» [المصدر السابق، ص 9].

وهنا سنتعرّض فيما يلي لانطباعات يمكن أن يعتبرها أنسنة بعنوانها العام (الأنسنة الدينية، الأنسنة العلمانية) لملاحظة علاقة الفكر الأنسي بالدين من جهة، واهتمام الدين بالإنسان من جهة أخرى، قبل مناقشة الفكر الأنسي بشكل عام.

1- الأنسنة الدينية

تؤكد النزعة الأنسية على محورية الإنسان ويرى لالاند أنّ لها مذاهب شديدة الاختلاف حسب مستوى اعتمادها هذه المحورية وكونها معتمدة فقط كمنهج أو مرفوعة إلى مستوى نسق أو نظام، بل وحسب ما يكون فيها استبعاد (ما فوق الطبيعة) نهائياً أو محدوداً. [انظر: لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج 2، ص 569]

فإذا كانت محورية الإنسان عبارة عن منهج، ولم يستبعد النظام الفكري لهذا المنهج الأنسي (ما فوق الطبيعة)، فإنّ المتدين أيضاً يمكن أن يفترض نفسه أنسياً، فهو لن يجد الإيمان بوجود خالق يتنافى مع محورية الإنسان والاهتمام بكرامة الإنسان وقدراته، بل سيجد في النصوص الدينية ما يدعم ذلك ويؤيده.

فنحن نجد بسهولة آيات قرآنية تؤكد كرامة الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [سورة الإسراء: 70]، فالآية الكريمة تؤكد فضل الإنسان على كثير من الخلق، وتكريمه من الله ﷻ بتسخيرها له في طعامه وشرابه ولباسه، وفي سفره، وفي جميع ما فيه راحته.

كما تؤكد الآيات على أهميّة العقل والاعتماد على الفكر في كثير من الموارد التي تدعو فيها إلى التعقّل والتفكير والتأمّل في الخلق وعجائبه [انظر: سورة البقرة: 164 و266؛ سورة آل عمران: 176؛ سورة

الأنعام: 32 و50؛ سورة يونس: 24؛ سورة الرعد: 3؛ سورة النحل: 11 و12؛ سورة الحج: 46؛ سورة المؤمنون: 80؛ سورة الروم: 21؛ سورة الحديد: 17 وغيرها، وعدم اتباع الظنون والأوهام [انظر: سورة البقرة: 170 و171؛ سورة الأنعام: 116 و148؛ سورة الأنفال: 22؛ سورة يونس: 35 و36؛ سورة الفرقان: 44؛ سورة النجم: 23 و28 و29 و30].

وفي بحث حول نظرية الإنسان الكامل في الإسلام الذي يمثل خليفة الله في الأرض فصل أحد الباحثين في بيان مميزات الشخصية الكاملة في النظرية الإسلامية التي تركز على جوانب إنسانية يتحلّى بها الإنسان الكامل وفق الآيات القرآنية، وذكر ضمنها:

- أ- اليقين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: 24].
- ب- الثبات: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة إبراهيم: 27].
- ج- التحلي بالحكمة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: 269].

د- البصيرة: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة الجاثية: 20]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 201].

هـ- الكرامة والعزة: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: 26]، و﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المنافقون: 8].

و- الحياة الطيبة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل: 97].

ز- الرحمة والمحبة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [سورة آل عمران: 103]. [انظر: نيك صفت، روش،

مباني و نظريه انسان شناسی اسلام و انسان گرای، نشریه پژوهش و حوزه، شماره 25، بهار 1385 ش، ص 127 - 130]

كل هذا الاهتمام بالإنسان والتركيز على صفاته الكمالية التي ترتبط بطبيعة الإنسان المعنوية مع ملاحظة طبيعته المادية أيضًا، يمكن أن يوصف بمحورية الإنسان، لكن هذه المحورية بعد محورية الخالق، وليست هي المحورية الأولى كما يتضح من نفس الآيات وآيات أخرى في القرآن الكريم.

فالاهتمام بالإنسان بملكاته وقدراته وحاجاته، بروحه وجسده أمر مهم أكّده الخالق، فهو لم يخلقه عبثًا بلا هدف، بل خلق سائر المخلوقات وسخرها له: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿سورة الجاثية: 13﴾، في طريق تكامله، لكن كل ذلك تحت ظل عبوديته لله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [سورة الأنعام: 102]، وضمن تأكيد كونه هو أيضاً من مخلوقات الله ﷻ الذي لا يخرج عن سلطانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأنعام: 3]، وأتته بكل تلك الخصوصيات والمميزات قد يسير في الطريق الصحيح الذي خلق له، ويصل إلى الهدف من خلقته، ليكون فعلاً خليفة الله في الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 105]، وقد يسير في الطريق المخالف لذلك الذي يجعله متسافلاً متراجعاً عن كماله؛ ليكون أسوأ حالاً من سائر المخلوقات التي لم تعط الاختيار ولم يسخر لها غيرها: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الفرقان: 44].

الأنسنة الحديثة بلباسها الديني

مع ذلك كله لا يمكن أن ينسجم الفكر الأنسني الحديث مع المبادئ الدينية، فهو ينكر الغيب والإيمان بالخالق، لكنّه اخترق المجتمع الإسلامي من خلال محاولات الجمع بين الفكر الأنسني الغربي والقيم الإسلامية، ولأنّ محور الفكر الأنسني هو الإنسان بنفسه لا من حيث هو مخلوق لله، ومحور الفكر الإسلامي هو الله ﷻ والإنسان من حيث هو عبد مطيع لله ليمثّل خلافة الله، فإنّ الجمع بين هذين الفكرين يواجه صعوباتٍ عدّة أساسها النصوص الدينية التي تؤكد العبودية والطاعة لله، والتي تعطي قوانين الحياة بجميع تفاصيلها وفق هذه النظرة؛ لذلك دخل الفكر الأنسني الحديث إلى المجتمع الإسلامي من نافذة تأويل تلك النصوص وفقاً لمحورية الإنسان وتنمية طاقاته والاهتمام بقدراته وحقوقه.

وقد اهتمّ رواد الفكر الأنسني الحديث في العالم الإسلامي بالترويج للقراءات الحداثيّة للقرآن الكريم على الخصوص، إذ تسعى تلك القراءات إلى قطيعة معرفية بينها وبين التفسير القرآني الموروث، ذلك التفسير الذي يعطي آيات القرآن الكريم أهمّيتها ومكانتها ويسعى من خلالها لتحديد الأسس النظرية للإيمان وتقوية أسبابه العملية، بينما تأتي القراءات الحداثيّة لا لأخذ الاعتقاد الديني من القرآن الكريم أو النظر في أسسه ومقوماته، بل هي تواجه الآيات القرآنية بالنقد. [انظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة.. مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ص 176]

وقد اتبعت هذه القراءات - بحسب طه عبد الرحمن - خطّاً انتقاديّةً مختلفةً تسعى كلّ واحدة منها إلى إزالة شيء مما تراه عائقاً اعتقاديّاً، منها:

أ- خطة الأنسنة: وتستهدف إعطاء الطابع البشري للآيات القرآنية، فتستخدم التعبير بمثل (المدونة القرآنية)، وبالتالي فالقرآن الكريم نص بشري له محيطه الثقافي الخاص ويتأثر بالزمن.

ب- خطة التعقيل: وتستهدف إخضاع الآيات القرآنية للنقد بجميع الوسائل البشرية، باستعمال مناهج الدراسات المسيحية للكتاب المقدس، وتطبيق المناهج الحديثة للعلوم الإنسانية، بل وحتى تطبيق نظريات العلوم التجريبية ونقد مفاد الآيات القرآنية بها.

ج- خطة تاريخية القرآن: وتستهدف تحديد الآيات القرآنية في الأحداث التاريخية المقترنة بها، فلا تكون آيات الأحكام ذات قيمة قانونية؛ وقد تكون توجيهية فقط، ويمكن فهمها بعدة صور، بل يشمل ذلك الآيات المرتبطة بالاعتقادات أيضاً. [انظر: المصدر السابق، ص 178 - 188]

ومن الواضح أنّ هذه الخطط مستمدة من واقع الصراع الذي خاضه التنويريون في الغرب ضد رجال الكنيسة، والذي ارتكز على: محورية الإنسان لا الإله، والاعتماد على العقل دون الوحي، والعمل للدنيا لا للآخرة.

فما يقدمه الفكر الأنسي في العالم الإسلامي بعنوان الحداثة لا يعدو كونه تقليدًا لواقع المجتمع الغربي ومشاكله، إذ أريد له أن يقطع صلته بالماضي لما انطبع في الأذهان من أشكال التخلف التي عانوها في القرون الوسطى، رغم أنّ هذا لا ينطبق على المجتمع الإسلامي، فتلك القرون نفسها كانت تشهد على تحضر المجتمع المسلم وإنّما تراجع بعدها، لكنهم أرادوا أيضًا أن يتخلّى عن تاريخه! [انظر: المصدر السابق، ص 175 - 176]

فالفكر الأنسي المتلبس بلباس الدين ليس إلّا ركوبًا في أول عربية في طريق التخلي عن الدين بنحو من التدريج السريع، كما يمكن ملاحظة ذلك بسهولة من خلال ملاحظة مبادئه وما يمكن أن يترتب عليها من نتائج.

2- الأنسنة العلمانية

العلمانية هي أحد تجليات الأنسنة بصورة قانونية، فالعلمانية تعتمد على ربط الإنسان بالدنيا وبعبصره بدلًا من ربطه بالآخرة، كما يرجع إلى ذلك إلى أصلها اللغوي (Secularism)، وترفض فكرة المقدس والرجوع إلى الخالق، فتؤكد عدم ربط الدولة والتعليم والأخلاق بالدين، فالإنسان العاقل يرى أنّ العقل هو مصدر خلاصه لا الدين، فلا ينبغي أن يكون الدين أساسًا للأخلاق والتربية والقيم. [انظر: البار، العلمانية.. جذورها وأصولها، ص 26 - 28]

فالعلمانية بوصفها حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة

إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها، وكونها نزعةً إنسانيةً، هي حركة مضادةٌ للتدين والدين.

[انظر: المصدر السابق: ص 28]

ويصّر عادل ضاهر في كتابه "الأسس الفلسفية للعلمانية" على أنّ فهم العلمانية بأنها تقديم سلطة الدولة المدنية على السلطة الدينية ورفض هيمنة رجال الدين - وبالتالي ليس للعلمانية مكان في المجتمع الإسلامي لاختلاف الظروف التي مربّها واختلاف علاقة الدين بالدنيا إسلامياً - ما هو إلا رجوع إلى جذورها التاريخية وما فرضته التجربة الأوروبية في العصور الوسطى، وأنّ

للعلمانية جذراً معرفياً أعمق من هذا. [انظر: عادل ضاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، ص 41 و 42]

لكنّه يعود في توضيحه للفكر العلماني من جذوره كما يراه، ليؤكد أنّ الغرض الأخير للعلمانية هو تقويض الأسس التي يقوم عليها مفهوم الدولة الدينية بكلّ صورها، وذلك أنّ المهمّ في معارضة الدولة الدينية هو الطابع الكليّ لها، ومشكلة الدولة الدينية عنده ليست في كون السلطة لرجال الدين أو لغيرهم، بل إنّ لها مرجعاً مطلقاً في كلّ الشؤون الدينية والدنيوية هو الله ﷻ، سواءً كان هناك وسائط بينها وبين المرجع المطلق أو اقتصر الأمر على الرسل والنبیین، فالقضية هي: جعل الدين في نصوصه المقدسة المرجع الأخير في كلّ ما يخصّ شؤون الدين والدنيا على حدّ سواء، وهذا

ما سينتج واقعاً يكون فيه لرجال الدين أهميّة كبرى. [انظر: المصدر السابق، ص 48 و 49]

ويشير عادل ضاهر إلى أنّ هناك عوامل موضوعية ترتبط بطبيعة السياسية والاجتماع من جهة، وطبيعة البشر والتدين من جهة أخرى، تلك العوامل هي التي تشكّل همزة الوصل الأساسية بين مفهوم الدولة الدينية وتأثير رجال الدين، وأنّ هذه العوامل يفرضها واقع البشر وليس الفكر، ففي نظره حتّى لو لم تكن الدولة الدينية وفق الفكر الإسلامي تفرض سلطة رجال الدين، فإنّ الشروط الموضوعية التي تنشأ في كنفها الدولة الدينية تفرض ذلك [انظر: المصدر السابق، ص 50 و 51]، لكنّه يغفل هذا التحليل عند طرحه للدولة وفق التصوّر العلماني الذي يتبنّاه، ويفترض أنّها لا تستلزم إنكار الدين، مع أنّ مثل هذه النتيجة قد ترجع على العوامل التي يفرضها واقع البشر وليس الفكر فقط.

يؤكد كذلك على أنّ جعل الدين المرجع النهائي في كلّ الأمور يفترض أنّ واجبات المؤمن ليست مقتصرةً على واجباته الروحية، بل تشمل واجباتٍ أخرى تتّصل بحياته العملية وتجسّداتها على المستوى السياسي والاجتماعي والقانوني، فهو ملزم بالقوانين الإلهية في تنظيم حياته، والمشكلة عنده أنّ ذلك يعني أنّ القوانين الإنسانية ليست ملزمةً للمؤمن ما لم تكن مشتقةً من القوانين الإلهية، فالموقف العلماني يرفض أن يكون سوى الأخلاق أساساً أخيراً للإلزام السياسي،

والأخلاق نشاط مستقلٌ منطقيًا عن الدين، وإن ارتبط به تاريخيًا، والاعتبارات الخلقية يجب أن تكون هي الأساس لا الاعتبارات الدينية، فالعقل العملي (العقل الوسيلى والمعياري) وفق الرؤية العلمانية مستقلٌ عن الدين ومقدمٌ على النص. [انظر: المصدر السابق، ص 51 - 54]

ويستمرّ عادل ضاهر في عرض اعتراضاته على ما يمكن أن تؤول إليه الدولة الدينية من الرجوع إلى الفقهاء، وبالتالي حاكميتهم دون مبرر في نظره، بل يصل إلى الاستشكال في إمكان الرجوع على الله ﷻ من خلال النص الإلهي، ما يعكس وجود مشكلة معرفية عنده في فهمه للدين الإسلامي، وعلى الأقل في إحاطته باتجاهات الفكر الإسلامي المختلفة والتي يمكن أن تجيب على جميع تساؤلاته بوضوح من خلال مبادئ أساسية كـ "حاكمة الخالق"، و"عصمة الأنبياء"، و"ضرورة الإمامة الإلهية"، بل وجهله بعلاقة العقل بالدين وأهمية الأحكام العقلية حتى العملية في الدين وفق الفكر الإمامي على الأقل، وخلطه بين مفهوم العقل العملي والأعراف أو الأفكار الاجتماعية أو الشخصية التي تتأثر بمؤثرات عدة.

رابعًا: تهافت الفكر الأنسني ونتائجه

ربما يمكن التفصيل في اتجاهات الفكر الأنسني، إلا أننا نكتفي بأهم ركائز الأنسنة المذكورة، وتوضيح ارتباط ذلك بالفكر الديني وكيف يمكن أن يؤثر عليه كما لاحظنا قبل قليل، ويتضح ذلك من النظرة التاريخية أيضًا، وننتقل هنا إلى ذكر الملاحظات على الفكر الأنسني والآثار المترتبة عليه بإيجاز:

1- المعرفة وفق الفكر الأنسني

تعتمد الأنسنة على المعرفة الإنسانية مدعيةً التمسك بالعقل، وأنّ العقل البشري هو الحاكم، لكن المقصود من العقل في الفكر الغربي الحديث بشكل عام هو العقل المعتمد على الحس والتجربة، ولا مكان للعقل الرهاني عندما تكون القضايا غير حسية، فهي عندهم إمّا غير مفهومة أو غير قابلة للاستدلال؛ لذلك يستبعد الفكر الأنسني كلّ ما يرتبط بالغيب والخالق (الميتافيزيقيا)، فهي أمور لا تؤثر عندهم في حياة الإنسان وينبغي ألا يلتفت إليها.

إنّ الاقتصار على المعرفة التجريبية يحرم الإنسان من مميزات المعرفة المنطقية العقلية، وبالتالي يقلل مساحة اليقين في المجال المعرفي للإنسان، وهذا ما أدّى إلى دخول مذهب الشك في الفكر الغربي وتأثيره بشكل واضح، فالمعرفة التجريبية لوحدها غير قادرة على الكشف عن الحقائق، ولها جوانب محدودة، ولا يستغني الإنسان عن المعرفة العقلية الفلسفية، فحتى العلوم التجريبية تعتمد على أصول فلسفية. [انظر: المصري، أصول المعرفة والمنهج العقلي، ص 93 - 96؛ الطباطبائي، أصول الفلسفة

كما أنّ المعرفة الوحيانية لها أصول فلسفية، ولا يستغني الإنسان عنها أيضًا، وقد قدّمت الكثير للإنسان من الناحية العلمية والاجتماعية والأخلاقية، فهي تقدّم معارف مهمّة لا غنى عنها لحياة الإنسان، وهذا بحث مفصّل في نظرية المعرفة.

2- الأسس الفكرية للأنسنة

يركّز الفكر الأنسني على قدرات الإنسان المادّية وإلغاء ارتباطه بمبدأ أعلى من المادّة؛ لذلك نرى مبادئه تدور حول رفض المعرفة الدينية والارتباط بالخالق، وإنكار الحياة الآخرة. فهو فلسفيًا يبني على رؤية كونية ناقصة؛ ولذلك ينظر إلى الإنسان من جانب واحد فقط، ويقصر قيمته في حاجاته المادّية واهتمامه في حياته الدنيوية فقط، فهو لم يعالج سؤال: من أين أتى الإنسان؟ ولم يهتمّ به، ولا سؤال: إلى أين سيذهب؟ وإنّما يتحدث عن حياته: كيف يعيشها؟ والجواب على هذا السؤال دون تحديد الموقف الواضح من السؤالين السابقين لن يكون جوابًا دقيقًا ولا يحفظ إنسانية الإنسان وحقيقته وأهدافه التي وجد من أجلها.

وهذا إنّما جاء نتيجة تراكم مراحل من المواجهة بين الفكر الغربي التجريبي والفكر الديني المسيحي، بينما نجد قادة الفلسفة اليونانية القديمة مثل سقراط الذي يوجّه الإنسان إلى بعده الأخلاقي، فيؤكد أن يعرف الإنسان نفسه أولًا على حقيقتها المتمثلة في الروح، ويرى أنّ الإنسان في حقيقته مخلوق لله وعبد له، وأنّ فضيلته في عبوديته لربّه [انظر: كرد فروزجايي، يارعلى، سير تكوين انسان مدارى در فلسفه غرب، نشریه معرفت، شماره 69، شهریور 1382 ش]، ثمّ كان لأرسطو محاولة لوضع نظرية عقلانية أخلاقية قائمة على دراسة وثيقة لطبيعة البشر، وتركيز منظومته الأخلاقية ينصبّ على كيفية تحقيق نوع معيّن من السعادة أو الرفاهية في هذه الحياة، وليس في حياة ما ستأتي لاحقًا، دون أن يعني ذلك التخلّي عن حقيقة الإنسان المرتبطة بما وراء الطبيعة، ومع ذلك كان لأخلاق الفضيلة عند أرسطو تأثير بين الأخلاقيين المعاصرين، ومنهم الإنسانويين. ويقصي الفكر الأنسني المعرفة الدينية ويرى رجوع الأخلاق والبناء الفكري للمجتمع إلى المعرفة التجريبية، وأنّ المقياس النهائي لتلك المعارف هو مصلحة الإنسان، ولا مكان للرجوع للخالق، فبناءً على مباني الفكر الأنسني المتقدمة فإنّ الأخلاق يجب أن ترجع إلى دراسة الإنسان وفق حالته المادّية وحياته في هذه الدنيا فقط.

[انظر: لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج 2، ص 568؛ عادل زاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، ص 53 و 54]

بناءً على هذا الاتجاه تتحوّل المعارف المرتبطة بالإنسان (أخلاقيًا واجتماعيًا) إلى معارف نسبية، فلا يوجد حقائق وقيم أخلاقية، وإنّما هناك مصالح يريد الإنسان تحقيقها، وبناءً عليها يؤسّس

قيمه الأخلاقية، ونتيجة ذلك على المستوى المعرفي؛ فكل مجتمع وكل فرد يمكن أن يرى أنّ قيماً معينة هي الصحيحة وغيره يرى قيماً أخرى هي الصحيحة.

وأيضاً ومن أجل الوصول إلى السعادة الحقيقية في الحياة الدنيوية فنحن نحتاج إلى دين صحيح، فإننا لا نعرف كل جوانب الأمور ومصالحها ومفاسدها خصوصاً خلال فترة زمنية طويلة، فربما نعتبر أمراً حسناً لما يأتي بنفع آني في الزمن الحالي، في حين يجلب أضراراً فادحة في المستقبل البعيد؛ ولهذا نعتقد أنّ الدين بأحكامه الشرعية يضمن لنا السعادة الدنيوية والأخروية وبصورة ثابتة.

3- الآثار الاجتماعية للفكر الأنسي

النظرة الأنسية للإنسان ولسعادة الإنسان على أنها هي السعادة الدنيوية خصوصاً مع إنكار الجانب الميتافيزيقي في الفكر الإنساني، يحوّل السعادة الإنسانية إلى تلبية الحاجات المادية والغريزية على الخصوص، وبذلك يتحوّل الإنسان إلى حيوان في الواقع، وليس له أيّ امتياز عن الحيوانات سوى بعض قدراته على التصرف في الكون والمخلوقات الأخرى، فالأنسنة تحوّل الإنسان إلى حيوان له شيء من القدرات الخاصة.

وبذلك سيعيش الإنسان في داخله حالة من الانفصال عن حقيقته، فبعد إثبات أنّ الإنسان له روح وجانب معنوي مهم، سيكون الإنسان الذي يؤمن بالأنسنة يحاول التخلص من حالته الروحية، أو إغمارها ودفنها، وهذا ما يضعف حالته الإنسانية ويحوّله إلى حيوان يشبه الحيوانات المفترسة، فهو يسعى إلى تحقيق رغباته الغريزية، وسيحوّل التركيز على الملذات والغرائز الفرد إلى وحش، وبالتالي المجتمع إلى مجتمع متقاتل.

ونتيجة هذه الفكرة ليست سعادة الإنسان، فهم يؤسسونها بعنوان أنها توصل إلى السعادة، لكننا بعد تحليلها وملاحظة نتائجها سنجد أنها توصل الإنسان إلى حالة من العبودية للذات والشهوات والهوى، وهذا ما يؤدي إلى الأنا والمحافظة على المصالح الشخصية، ثم إلى الفساد الاجتماعي والحروب والاقتتال.

ومن جهة أخرى فإنّ الحياة تتحوّل إلى حياة خاوية لا معنى لها ولا قيمة لها وفق الفكر الأنسي؛ فهي ساعات وأيام ستنقضي لذاذاً سريعاً ثم سيفنى الإنسان بعدها وينتهي كل شيء.

[انظر: الموسوي، الإنسان بين المعتقد الديني والأنسنة، ص 71 و72]

4- الأنسنة في مواجهة الدين

مع محاولات التأكيد على أنّ الأنسنين فيهم مؤمنين وملحدين، وهناك محاولات للجمع بين الأنسنة والدين، إلا أنه يمكن القول إنّ الأنسنين هم على أقل تقدير منسجمون مع عدم الإيمان بالله ورفض الدين، يمكن ملاحظة ذلك من خلال نظرة إلى تاريخ الأنسنة من جهة، وإلى فكرة الأنسنة وأهم قواعدها من جهة أخرى، فإنّ جعل الأصالة للإنسان في مقابل الله دفعه شيئاً فشيئاً نحو العلمانية وإقصاء الدين عن حياة الإنسان ورفض الإيمان بالخالق الحكيم المؤثر والمدبر، فقد نشأ تفسير جديد للخالق والتعاليم الدينية، مبني على الإيمان بوجود خالق ونفي تدخله في حياة الإنسان، ونفي دور الدين وتعاليمه في إدارة الحياة، لينتج عن ذلك ما يسمّى بالإلهيات الطبيعية أو الدين الطبيعي، الذي يصوّر الاعتقاد بوجود خالق بأسلوب مادي وفق منهج العلوم الطبيعية، ويربط تأثير الدين بالحياة الفردية، ثمّ ظهرت اتجاهات التشكيك في وجود الخالق ودور الدين في الحياة، ثمّ إنكار ذلك والإلحاد. [انظر: رجبى، انسان شناسى، ص 50 و 51]

وتمثّل خطوات التخلي عن الدين تلك مراحل سار فيها الفكر الأنسني، فالتصوّر الذي يقدّمه مثل والتر مثلاً عن الخالق والدين لا ينسجم مع ما تقدّمه الأديان السماوية؛ فهو يتضمّن نفياً وإبطاً للنظريات والقيم الدينية، فحتى الأنسنين (المؤمنين) لا يرون الدين ولا الخالق هدفاً نهائياً ومرجعاً أساسياً في حياتهم، بل كلّ شيء يجب أن يكون في مصلحة الإنسان المادي وخدمته فقط.

ولذلك يؤكد ديوبس (Stephen Davies) أنّ الأنسنة تتضمّن التحرّر من التعاليم الدينية، ولها معانٍ لا تتناسب مع الإيمان؛ لذلك يعتمد عليها العلمانيون واللا دينيون في محاربة الدين.

[انظر: المصدر السابق، ص 50 و 51]

فالأنسنة تأخذ بالتدريج إلى إفراغ الدين عن محتواه، وإلغاء تأثيره في حياة الإنسان وأهدافه، لتوجّه نظره إلى دنياه المادية فقط، ثمّ لن يكون لاعتقاده أثر على حياته، وبالتالي لا قيمة له عملياً بالنسبة للإنسان المادي، ومن هنا فلا أهميّة للإيمان بوجود الخالق وعدمه، فلن يكون له معنى أصلاً، إذ لا أثر له على مستوى العالم التجريبي، وليس ذلك إلا طريق الإلحاد.

فكان منتقدو الحركة التنويرية يؤكّدون أنّ حالة تجاوز المقدّسات والشكّ التي أشاعها فلاسفة العصر الحديث أضعفت أساسات النظم الاجتماعي، وساهمت في ظهور شكل الحكم القاسي، فالتنوير كان طريقاً نحو دنيا حديثة تفتقر إلى الروح، وتوجّه نحو حياة مادية بلا إيمان وبلا

هدف، يتحوّل الإنسان فيها إلى إنسان تائه غريب، فإنّ توجيه الأصالة إلى وجود الإنسان لا إلى وجود الله ﷻ، وأخذ الأنسنيون شيئاً فشيئاً إلى العلمانية وتحديد دور وجود الخالق في الحياة ونبذ الدين بشكل عامّ. [انظر: هاشمي، مقايسه تطبيقي انسان گرايي در انديشه اسلامي و غربي، ص 36]

فلم تكن الأنسنة عنواناً مذهبياً أو منهجاً فلسفياً محدّداً، بل هي نوع تفكير يتجلّى بصور متعدّدة قد يؤسّس له بأصول عملية متنوّعة؛ لذلك كان الاتجاه نحو نبذ الدين أيضاً متنوّعاً في اتّجاهات متعدّدة، من طرح تفاسير وقراءات جديدة للدين والتعاليم الدينية، أو نفي تدخل الإله في الحياة، إلى الشكّ في الدين والخالق، حتّى إنكار ذلك تماماً. [انظر: المصدر السابق، ص 36]

وأخيراً فإنّ نتيجة قول الأنسنيين بكفاية العقل البشري لتضمين سعادته أدّت إلى كوارث وفجائع كبيرة في القرن الماضي، مثل الحربين العالميتين واستعمار الدول الضعيفة و... ممّا جعل المفكرين والفلاسفة الغربيين يعيدون النظر في ما كانوا يعتقدون به من الاعتماد المفرط على العقل البشري والنظرة العدائية تجاه الدين، واضطروا إلى القول بالأنسنة وفكر ما بعد الحداثة الذي يفسح مجالاً للدين.

الخاتمة

على تشتت الفكر الأنسي يمكن فهم أهم ملامحه وتحديد غاياته بملاحظة جذوره وتاريخه، وفي ختام جولتنا ننتهي هنا إلى أهم النقاط التي مرّت خلال البحث كالتالي:

معنى الأنسنة:

1- لا يمكن اعتبار الأنسنة اتّجّاهًا فكريًا فضلًا عن كونها منهجًا أو فلسفةً، بل هي عبارة عن فكرة عامّة يمكن ادّعاء الانتماء إليها في كلّ المجالات وعلى مستويات مختلفة، وفي الحقيقة ليست الأنسنة في عداد سائر المدارس الفكرية، بل يمكن اعتبارها باراديغمًا يهيمن على المناهج والتيارات الفكرية والمدارس الفلسفية. نعم، الأنسنة لها ساحة فسيحة جدًا.

2- تجعل الأنسنة الإنسان مركز الوجود ومقياسًا لكلّ قيمة وترفض ما فوق الطبيعة، وتعتبر الإنسان موضوعًا طبيعيًا، فتركز على النفعية والمصالح المادّية.

3- تؤكّد الأنسنة قدرة الإنسان على تحقيق الذات من خلال العقل وفي حدود المنهج العلمي التجريبي فقط.

4- أهمّ المبادئ التي يتبنّاها الفكر الأنسي تتمثّل في: الاعتماد على العلم والعقل في كافّة مناحي الحياة، والشكّ في وجود إله أو آلهة، وهذه الحياة هي الحياة الوحيدة، وينبغي أن تستمدّ الأخلاق عن طريق دراسة الطبيعة الفعلية للبشر وما يساعدهم على الازدهار في هذه الحياة لا الحياة الآخرة، ويمكن أن يكون للحياة معنىّ دون الإله، وينبغي أن تتخذ الدولة موقفًا حياديًا فيما يتعلق بالدين.

5- إذا كانت محورية الإنسان عبارة عن منهج، ولم يستبعد النظام الفكري لها (ما فوق الطبيعة) فلن يكون الإيمان بوجود خالق يتنافى مع محورية الإنسان.

6- الاهتمام بالإنسان والتركيز على صفاته الكمالية المعنوية مع ملاحظة طبيعته المادّية يمكن أن يوصف بمحورية الإنسان، لكنّها تأتي بعد محورية الخالق.

7- النصوص الدينية تؤكّد العبودية والطاعة لله، وتعطي قوانين الحياة بجميع تفاصيلها وفق هذه النظرة.

8- محور الفكر الأنسي هو الإنسان بنفسه لا من حيث هو مخلوق لله، ومحور الفكر الإسلامي هو الله ﷻ، والإنسان من حيث هو عبد مطيع لله ليمثّل خلافة الله، فالجمع بين هذين الفكرين يواجه صعوباتٍ عدّة.

9- اهتمّ رواد الفكر الأنسي الحديث في العالم الإسلامي بالترويج للقراءات الحداثيّة للقرآن الكريم، لا لأخذ الاعتقاد الديني أو النظر في أسسه ومقوماته، بل لمواجهة الآيات القرآنية بالنقد.

- 10- ما يقدمه الفكر الأنسني في العالم الإسلامي بعنوان الحداثة لا يعدو كونه تقليدًا لواقع المجتمع الغربي ومشاكله.
- 11- الغرض الأخير للعلمانية هو تقويض الأسس التي يقوم عليها مفهوم الدولة الدينية، فتؤكد عدم ربط الدولة والتعليم والأخلاق بالدين، والعقل هو مصدر خلاص الإنسان لا الدين.
- 12- يلاحظ على الفكر الأنسني: أنه بالاعتصار على المعرفة التجريبية يحرم الإنسان من مميزات المعرفة المنطقية العقلية، وبالتالي يقلل مساحة اليقين في مجال المعرفة.
- 13- فلسفيًا يبني الفكر الأنسني على رؤية كونية ناقصة؛ لذلك يقصر قيمة الإنسان في حاجاته المادية واهتمامه في حياته الدنيوية فقط، ولا يحفظ إنسانية الإنسان وحقيقته وأهدافه التي وجد من أجلها.
- 14- المقياس النهائي للمعرفة الأخلاقية والاجتماعية في الفكر الأنسني هو المصلحة الدنيوية فقط، فهي معارف نسبية، ولا تمثل حقائق، وإنما هي مصالح.
- 15- الإنسان الذي يؤمن بالأنسنة سيحاول التخلص من حالته الروحية ودفنها أو إغمارها؛ لأنه يعيش في داخله الانفصال عن حقيقته بالاعتصار على جانبه المادي.
- 16- تتحول الحياة إلى حياة خاوية لا معنى لها ولا قيمة لها وفق الفكر الأنسني؛ فهي ساعات وأيام ستتنقضي لذائذها سريعًا ثم سيفنى الإنسان بعدها.
- 17- تفرغ الأنسنة الدين عن محتواه، وتلغي تأثيره في حياة الإنسان، فتوجه نظره إلى دنياه المادية فقط، فليس لاعتقاده أثر على حياته وبالتالي لا قيمة له عمليًا، ولن يكون للإيمان معنى، وليس ذلك إلا طريق الإلحاد.

قائمة المصادر

القرآن الكريم

- افلاطون، دوره آثار افلاطون، ترجمه: محمدحسن لطفی، انتشارات خوارزمی.
- البار، محمدعلي، العلمانية.. جذورها وأصولها، دار القلم، الطبعة الأولى، 2008 م.
- الحفني، الدكتور عبد المنعم، الموسوعة الفلسفية، مكتبة مدبولي.
- الطباطبائي، محمدحسين، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، ترجمة: عمار أبو رغيف.
- المصري، د. أيمن، أصول المعرفة والمنهج العقلي، الأميرة للطباعة، الطبعة الأولى، 2012 م.
- بدوي، عبد الرحمن، الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، دار القلم، 1403 هـ.
- رجبي، محمود، انسان شناسی، مؤسسه آموزشی و پژوهشی امام خمینی، 1398 ش.
- صالح، هاشم، مدخل إلى التنوير الأوروبي، دار الطليعة، الطبعة الأولى 2005 م.
- ظاهر، عادل، الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقی، الطبعة الثانية، 1998 م.
- عبد الرحمن، طه، روح الحداثة.. مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2006 م.
- کرد فروزجایی، یارعلی، سیر تکوین انسان مداری در فلسفه غرب، نشریه معرفت، شماره 69، شهریور 1382 ش.
- لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، الطبعة الثانية، 2001 م.
- لو، ستيفن، الإنسانية (مقدمة قصيرة جداً)، ترجمة: ضياء ورّاد، مؤسسة هنداوي، الطبعة الأولى، 2016 م.
- مشگی، مهدي، انسان محوری، نشریه معرفت، شماره 220، 1395 ش.
- موسوي، د. روح الله، الإنسان بين المعتقد الديني والأنسنة، مؤسسة الدليل، الطبعة الأولى، 2019 م.
- نيك صفت، ابراهيم، روش، مباني و نظريه انسان شناسی اسلام و انسان گرایی، نشریه پژوهش و حوزه، شماره 25، بهار 1385 ش.
- هاشمی، خديجه و ... مقایسه تطبیقی انسان گرایی در اندیشه اسلامی و غربی، نشریه قبسات، شماره 70، زمستان 1392 ش.
- پري، رالف بارتون، إنسانية الإنسان، ترجمة: سلمی الخضرا الجيوسي، مكتبة المعارف، 1961 م.